

## السوربوره في فرنسه

في القرنين السادس والسابع للمسيح

بقلم الاب لامنس اليسوعي

اود ان ابيّن في هذه السطور ، كيف باشر السوربون بسط  
نفوذهم الاقتصادي على بلاد غالية ، وكيف توقفوا الى جعلها  
مستعمرة تجارية ملحقة بوطنهم الاصلى ، على مدة قرنين تقريباً ،  
اي طول حكم الميروثيجين . ولا شك ان هذه اللوحة التاريخية تساعدنا في  
فهم مسألة المهاجرة السورية المهتمة ، كما انها تعيننا في قدر ماضي هذا الشعب  
النشط حق قدره ، وقياس مواهبه المتنوعة قياساً عادلاً .

بينما نرى الفلاح المصري شديد التعلق بارضه ، يعيش ويعت في منطقته  
الضيقة ، زى جاره الفلسطيني ، البثوري ، اللبناني لا يقتأ مافراً من قطر  
الى قطر . وهو ميل غريزي فيه ذرته عن اجداده الفنيقيين ، جوآبي الآفاق  
وقاطبي الصحاري والبحار ، مؤسسي زبلم الرحلات البرية والاسفار البحرية ،  
حتى ان اسم الفينيقي غدا ، في التوراة ، مرادفاً للتاجر ، للبائع النقال الذي  
نمده بحق سلفاً لتجارنا المتكلمين ووسطائنا الجوالين في مدن العرب . كان الفينيقي  
يرحل ليصيد الزبون ، فيصل الى بلاده ، ويمرض عليه بضاعته . ثم يشتري من  
بلاد هجرته المواد الاولية ، او المصنوعات الخاصة ، فيحملها الى بلاده ويقادها  
محتسناً فيها وزانداً عليها . واننا زى في العهد العتيق ذكر « المرأة القوية » التي  
كانت تستعمل اوقات فراغها لنسج الصوف منتظرة مرور الكنعاني الفينيقي .

وكان السهل الفينيقي الضيق المحصور بين البحر والجبل تنتشر فيه المعامل  
والمصانع مشتتة كأنها في سبيل التصدير الى البلاد الاجنبية ، منتجة انواع

الزجاج والاصباغ المختلفة ، ومصنوعات الفخار ، وقطع النسيج ، ظاهرةً جميعها بظهور خلايا النحل المتراكمة بعضها الى بعض ، الدائبة على العمل دون انتطاق .  
 وطالما أُجيب قداماء الكتبة والمؤرخين بهذه الحركة المتواصلة ، وبروح الاندماج الذي يميز الفينيقيين ، فقال عنهم بومبونيوس ميلانهم « أمةً صناعيةً مجتهدة ، متعبة في اعمال الحرب والسلام ، وانهم تجارةً فائقو المهارة . » وكذلك رأي القديس ايرونيموس فانه ، في شرحه مقطع النبي حزقيال المشهور عن ازدهار تجارة الصوريين ، يشهد ان السوريين يظهرن بمجى وجدارة ابناء اولئك التجار الاقدمين فانهم ورثوا « مياهم الشديد الفطري للامال التجارية الراجحة . وان هذا الميل يتقدم حتى اقاصي المعمور . وعلى الرغم من اكتساح البرابرة الامبراطورية الرومانية ، وفي وسط الجيرش ، وتجاه موت الساكنين ، تراهم يسمون دائماً في سبل جمع الثروات والحرب من الفقر ، وسط المخاطر . » واذنا لتخال هذه الاطر المكتوبة قبل ستة عشر قرناً مقتضبة من تقرير عصري عن المهاجرة السورية .

ومن اهم ما كان يدفع قداماء السوريين الى القيام بهذا الدور الخطير طبيعة تكوين بلادهم وهيئتها الجغرافية ، وهي جسر بين قارات العالم الثلاث يتصل من بيدا الرمال الى امواج المتوسط . وقد استخدموا طريقت البحر بكل جرأة ومهارة فمزّزوا بواسطة المواصلات الدولية المختلفة بمخمين من عصر بعيد قول ليوبولد الثاني : « ان شياً له منفذ على البحر لن يكون بالشعب الصغير ! »  
 ما يشرح لنا هذه الحقيقة التي لا سبيل الى انكارها وهي ان البلاد السورية كانت في العصر القديم ، وفي عهد طربل من القرون الوسطى ، المركز المهم لحركة صناعية دائبة متنوعة ؛ واطّحت مستودعاً جاماً أثن محمولات الشرق الادنى والشرق الاوسط .

وقبل العصر الذي ندرسه اليوم (القرنين السادس والسابع للمسيح) يذكر مؤلف «وصف العالم الروماني» اهم صادرات البلاد السورية فيمددها قائلاً : « انبذة غزوة وعقلان ؛ الكتان المصنوع في سيتوبوليس (بيسان) ، ولاوديسية (اللاذقية) ، وييبولوس (جيبيل) ، وتير (صور) ، وبيريت (بيروت) ؛ وارجوان قيصرية

ونابلس ولدة ؛ وتمر اريحا ونخلها ؛ وفتق دمشق وفواكهها . وهو ينهى لانته بذكر ممثلي المهازل والمهرجين والمخرفين والموسيقين والمصارعين الذين كانوا يجيئون الملامي في مدن الشرق ، والذين كانوا مجذقيهم ورشاقهم يملون ويلهون قدماه الغالين . ويُستتج من عدة كتابات ان مهارة السوريين الموسيقية كانت مشهورة طول العهد الاول من القرون الوسطى ، حتى ان الكثيرين منهم توصلوا ، بواسطة مواهبهم الموسيقية ، الى اعلى المراتب الكفية في بلاد الغرب .

وان من يتصفح التواريخ اليونانية واللاتينية يوجب باجماع مؤلفيها على القول بفضي البلاد السورية وكثرة مواردها الحيوية . وقد زادت هذه الموارد وازداد بها غنى البلاد ، في القرن السادس ، اذ بدأت صناعة الحرير . ويعود الفضل في ذلك الى راهبين فاضلين أتيا ، تحت طي الحفاء ، من بلاد الصين ببعض بزور القز . هذا وان اللانحة التي اوردناها اعلاه اغنت ، ولا ندري لاي سبب ، ذكر الزجاج الذي كان من اشهر الصناعات السورية واجداها عائدة على البلاد . وهذه لائحة اخرى بالصادرات السورية مختصرة عن الجغرافي الشهير المقدسي :

الزيت ، وانواع الصابون ، والمنسوجات النصف حريرية ، والتطن ، وصنع النيل ، والموز ، والمسل ، والسكر ، والمرايا ، وانواع النحاس ، والارز ، والاطياب وعطور الازهار ، وجميع انواع العنب والفواكه المجففة والمطبوخة .

ولكن مع كل ما تقدم لا يمكننا القول ، كما لا يزال البعض يزعمون ، ان سورية او سهول البقاع كانت اهراب الامبراطورية الرومانية . وليس ذلك لجذب هذه البلاد ، بل لان ثروة البلاد السورية كانت تستند الى موارد اقل كلفة من مورد الحبوب واوفر انتاجاً . فان سورية كانت تصدر الى العالم اليوناني - الروماني ، والى العالم البربري الذي خلفه ، بضائع القرف وطلع البذخ التي تقابل ما ندعوه اليوم « بسلع باريس » كالنوع الطيوب ، والمنسوجات الحريرية والكثانية المطبقة بالذهب وبعض الهنات الترينية القيمة ، ثم الافاويه والحجارة الكريمة والمعادن الثمينة التي كانت تستوردها من الهند ومن بلاد العرب . ثم ان الانبذة السورية كانت تحتل الاسواق في بلاد غالية وتقوق غيرها ،

وكانت انبذة فاخرة بشهادة غريغوار التوري ؛ وكما اننا لا نتصور اليوم مأدبة لا تنتهي بأكواب الشمبانيا ، كذلك لم تكن تخلو مرائد اغنياء غالية في القرون الاولى للمسيح من نبيذ غزة الفاخر . وكذلك كانت حالة اوربة في ما بعد ، في ما خص نبيذ قبرص .

وان من يسافر في انحاء سورية يستفيد من المعلومات ، في هذا الموضوع ، ما لا يقل عما يستفيدة دارس الكتب ، بشرط ان يلاحظ ما حوله . فانه لا يلبث ان يتأكد أن ما يرويه قدماء المؤلفين عن خصب هذه البلاد ورخاء الميثة فيها لا يمكن نسبه الى المغالاة . يشهد بذلك ايضاً ما نراه من بقايا الآثار الراقية الى المهد الروماني - البيزنطي ، الدالة كلها على حياة فنية موافقة ما تتطلبه المدنية من التأنق في الرفاهية والترف كتلك الكنائس الرائعة ، والتصوير الرشيق ، وكثرة ما فيها من الفسيفساء . فاذا عرفنا ان الفنون الجميلة لا تكون حصّة الشعب الفقير التبعس ، تحمقنا السمادة التي كانت تتمتع بها بلادنا حتى في مناطقها المجاورة الصحراء ، وادركنا الدافع الذي حمل الامبراطور يوستينيانوس ، اذ رغب في تأسيس مواصلات دائمة بين القسطنطينية وبلاد القرب ، على اختيار السوري ادايوس وجعله رجل تفته . فانشأ المراكب التي قامت بالمواصلات المنتظمة بين بلاد غالية والمرانيخ السورية .

\* \* \*

منذ عصور النصرانية الاولى ، نرى الجوالي السورية في غالية . ألا انهم في اول عهدهم كانوا يختلفون بين جمهور الرعية الرومانية فيتبعون طقوسها الدينية ويتستون بالاسماء اللاتينية ويتكلمون اللغة اللاتينية . وعلى الرغم من روح الاقدام المتأصل فيهم ، ومهارتهم في تحمين المعاملات واغتنام القرض ، لم يكونوا اذ ذاك لينصروا على تلك المدنية الفائقة القوة . ولكن لم تلبث الحالة ان تغيرت . فما اخذت القبائل الجرمانية تكتسح الامبراطورية منذ القرن الخامس ، حتى بدأ السوريون يتميزون من جمهرة الشعب الوطني ، كما يلاحظ القديس ايرونيموس ، ويأخذون شيئاً فشيئاً بالسيطرة على السوق الغالية . الى ان سقطت الامبراطورية العظيمة ، فزاعت سقطتها الغالين وكانها بهرتهم

وقيدت مواهبهم فمجزوا عن كل عمل من شأنه مقاومة عناصر الانحلال التي امتدت اليهم ، فاخذت التوضى تسود بلادهم مرجحة اياها الى عهد البربرية ، فضفت صناعاتهم وسائر محصولاتهم وتطل الكثير منها ، وغارت رؤوس اموالهم . وهي كارثة اقتصادية تتبع دائماً الكوارث السياسية ، كما تحققتاه بميد الحرب الكبرى .

ولما كان فتح السوق الهندية الغنية والسيطرة على محصولاتها ، الهدف الدائم للشعب الاقتصادية ، - وهو السبب الحقيقي لجميع المشاكل التي تحققتها المعضلة الشرقية منذ القديم حتى اليوم - ولما كانت سورية تقع في محطة من اهم محطات هذه السوق الهندية ، استفاد تجارها وارباب صناعاتها من هذا المركز المهم ومن حالة الامن والسلام التي كان يرتع فيها الشرق اذ ذاك ، فوسوا نطاق اعمالهم ، وزادوا محصولاتهم زيادة تطلبت المنافذ الاجنبية . فحصل ما نعرفه من درس الثرائع الاقتصادية ، وهو ان المصدر الاغني والاقدر يسيطر على السوق ، ويتسلط على المشتري الضيف ، وعلى شروطه كما يريد ، فيتحكم بالمعاملات المالية ، ويجعل الاولية لثقله وطرق مبادلاته ، وبكلمة واحدة : يشتري رخيصة ويبيع غالياً . وهذه كانت حالة السوريين في غالية الميروثجية والتوطية .

ولم يكن السوريون راحدين في هذه الحالة المالية والاقتصادية ، بل صادفوا هناك غيظهم من الشعوب الشرقية وناظرهم في معاملاتهم كالليونان والارمن خصوصاً ، والفرس والمصريين ولاسيما اهل الاسكندرية منهم . الا ان القريين لم يكونوا ليزورا بين هؤلاء الشعوب بل كانوا يدعونهم جميعهم « بالسوريين » ، كما كان الشرقيون يدعون جميع اهل اوروبة « بالفرنج » ، وكما كان سلفاؤنا في اوروبة لا يميزون المسلمين من الاثراك . ولكن من الحق ان نلاحظ ان دعوة كل الشرقيين باسم اهالي سورية لدليل واضح على اهمية هذا الشعب بالنسبة الى الباقيين ، وعلى تأثيره في الحركة التجارية اذ ذاك . فهو اجمال اولى السوريين مجداً وفخراً ، ولكنه اضر بسمتهم احياناً كما نرى .

في كل مهاجرة ، وفي كل تجربة استثمارية ، يدخل كثير من العناصر المضطربة ، ان لم نقل الفاسدة . فالتاجر ليس بالمرسل الديني ، وهو لا يهتم بطرق الكمال ولا بسبل المثل الاعلى . ولم يكن جميع المهاجرين الى غالية من ارقى

طبقات الشعب ؛ كان فيهم من جميع الطبقات ، من المتشردين ومن ارباب المقامرات . وسواء كان هؤلاء من السورين او اليونان او الارمن ، فان الرأي العام التالي لم يكن ليمتد بينهم بل كان يدعوهم جميعاً بالسورين محتلاً سورية تبعة اعمالهم .

ثم ان ما حصله السورين من النجاح بفضل مواهبهم التجارية ومهارتهم ، جعل الوطنيين ينظرون اليهم بيمين الحسد ، اذ كانوا يرون بضاعتهم كلسدة ، وحوانيتهم مقفرة . فكانوا يتذمرون من تلك المنفعة الاجنبية ويلجأون احياناً الى الحكومة . من ذلك ان حكومة رومة لكثرة ما ورد عليها من شكاوى تجارها الوطنيين ، قررت اخراج السورين من منطقتها ، ولكن سرعان ما رجعت عن قرارها اذ رأت المجاعة تهدد شعبها . وان هذه المناسبات والمناظرات والاختلافات لا مثنوحة عنها بين الشعوب المتباينة في المادات والمقليات ، لاسيما اذا كانت تتجه كلها الى غاية واحدة فتريد المنافع المادية الحالة خطورة وتجبر احياناً الى انشقاق مهم يتبع غالباً عن سوء التفاهم . وان المهاجر ، مها كانت اخلاقه سامية ، لا بد ان يراه الوطنيون اجنبياً وبالتالي غير مرغوب فيه ، حتى عندما يتعلمون مواهبه ويستفيدون من وجوده بينهم . فان كان فقيراً يمتدرونه ، وان كان غنياً يارز الشخصية ذا نفوذ يحدونه فيكرمونه . وان على التاريخ ان يتنبه لهذه الخصائص فلا يولي اهمية عظيمة للخلافات بين الوطنيين والاجانب لانها لا تدلّ غالباً على شيء . يذكر في اخلاق الشعوب المهاجرة في سبيل التجارة او الاستثمار .

ولكن لنعد الى السورين ، فاننا نراهم في المهددين القومي والفرنجي حائزين على تفوق اقتصادي لا يُنكر ، وعلى نظام تجاري لا يُجاري . وقد جازوا برؤوس الاموال وبالمحصولات المتنوعة الى بلاد كانت قد اقرتها الحروب المتوالية والفوضى المستديرة . اما ان يكون السوري اراد الاستفادة من حالة البلاد ومن تفوقه على تجارها حتى انه لم يهتم دائماً بتحسين علاقاته مع الوطنيين ولم يراع شعورهم في الكثير من الاحوال ، فهو امر لا يسلم منه بشري . ولكن يجب ألا ننسى ان الوطني يهتم دائماً الاجنبي ، او الدخيل ، كما يدعو .

وهو لا يفتخر له ان يبيعه غالباً أدوات الترف التي يدقمه الزهو والمعجب الى شرائها ، ولا يرى بعين الرضى نجاح ذلك الدخيل حيث يخفق هو الوطني الأصل . وعلى هذا القياس نرى ان جميع الشعوب التجارية كالفنقيين والقرطاجيين واليونان والارمن والبنادقة والبرتغاليين والهولنديين والانكليز كثيراً ما نُسبوا الى الطمع والاحتيال .

كان السوريون ، قبل العصر الذي نبهت فيه ، قد توصلوا الى اسمى مراتب الامبراطورية الرومانية ، فانالوا المرش أسرة ملكية . وها انهم في القرنين السادس والسابع يصلون الى كرسي بطرس فيجلس عليها منهم خمسة باباوات . وهي سلسلة من الاجار الاعظمين لا نعرف مثيلاً لها في شب آخر الأ الشعب الايطالي . وتشهد اللائحة الحبرية (*Liber Pontificalis*) ان الفضل في انتخاب هؤلاء الباباوات عائد لصفاتهم الشخصية ، وهي شهادة صريحة تنفي كل افتراض وتثكيك . ولم تنحصر رغبة السوريين في الارتقاء الى اسمى مراتب الكنيسة ، في ايطالية وحدها ، بل زاهم في غالبية ايضاً ، بمد ان يسيطروا على المصارف والتاجر ، ورأوا وظائف الحكومة مدودة دونهم ، يوجهون ابصارهم نحو الكنيسة وكثيراً ما كانوا ينجحون فيلبون التاج ويحملون السكاز . ألا ان منافسهم ينسبون هذا النجاح الى الدسائس والرشوات ، وسرى في ما يلي كيف ان المال السوري اثر في انتخاب صاحبه مرة واحدة على الاقل . ولم تلبث هذه الرغبة في المراتب المالية ان تأصلت فيهم واصبحت كيزة خاصة لهم بما تدل عليه من روح الاقدام والثقة بالنفس . ويشير المؤرخون الى ان جميع المنتخبين من السوريين للمراتب الكنسية العليا كانوا بارعين في الموسيقى . ويقول سيدوان پولينيير ، اسقف كليرمون ، في احدي اهاجيه : « السوريون يرتلون في الحفلات الدينية ا » *« Psalunt Syri »* وهو يظهر تعجبه بتقد لاذع ، لانه يعرف السوريين ماهرين في البيع والشراء ، متخصصين بالوقوف امام مناضد البضائع او الجالوس على كراسي المصارف ، فيستترّب قحوّلم الى اكليزيكيين يرتلون في الحفلات الدينية ويقراون على القراءات في الكنائس .

(البحث صلة)